الرسـالة الخامسة

أول يوم فى المدرسـة

أود الآن أن أركز – لا من قبيل التهاون بل بتلقائية حقيقية – على سلسلة من المشاكل التى لا يواجهها المدرسون الجدد فحسب ، ولكن يشترك فيها أيضاً ذوو الخبرة منهم . وفى اعتقادى أننى أثناء كتابة هذه الرسالة لا أزعم امتلاك حلولٍ لكل هذه المشاكل والصعوبات ، ولكنى أشعر أنه قد يكون لدى بعض الاقتراحات المفيدة ، والتى تنبع من خبرتى ومعرفتى المنظمة . وإذا ما ادعيت أننى أثناء كتابة هذه الرسالة أو فى كل رسائل الكتاب قد استغرقت كل الحقيقة الخاصة بالموضوعات المطروحة .. فإننى بذلك أكون قد تخليت عن فهمى لطبيعة عملية إنتاج المعرفة وخصائصها ، باعتبارها عملية اجتماعية مفتوحة النهاية ومتطورة . ومن ناحية أخرى ، وعلى العكس من ذلك.. فإننى إذا شعرت بالإحباط وعدم القدرة على الإسهام فى برامج التنمية المهنية لمن هم فى مرحلة الإعداد لممارسة مهنة التدريس ، أو حتى لهؤلاء الذين يمارسونها فعلاً منذ زمن قصير أو طويل ، فيصبح لزاماً على ألا أحرر هذا الكتاب ، حيث إنه من هذا المنطلق سيكون عديم الفائدة .

إننى لا ادعى امتلاك الحقيقة ، ولكن هذا الكتاب يحتوى على عديد من الحقائق ، وغاية ما أحلم به أن يتم تحدى ما تم التوصل إليه من هذه الحقائق ، وتتاح الفرص لمناقشتها من منظور المواقف التى يتخذها قراء الكتاب . وقد تقودهم مثل هذه المناقشات إلى تكوين حوار نقدى حول فهمهم للنظرية والممارسة لديهم .

أما تحليلى هذا ، فسوف يصبح بمثابة إطار مرجعى يمكنهم الرجوع إليه . ثم إننى لم أكتب أبداً كتاباً هدفه أن يبتلع قراؤه ما به من محتويات ، ولهذا فقد ألححت فى رسالة سابقة ، وركزت بشدة على دور القارئ الذى لا يقتصر على مجرد النقل الحرفى

للنص ، ولكنه يحرص على القيام بمهمته كمنتج للمعنى الذى تتضمنه المفردات النصية التى أمامه .

وأود أيضاً أن أوضح أنه أثناء جولات فى مختلف جوانب الموضوعات ، التى أتناولها سوف أعود لبعض النقاط التى وردت من قبل ، وسوف أحاول جاهداً أن أشرح هذه الموضوعات والنقاط مفصلاً ، لا مكرراً .

وسوف أبدأ بالتعليق على موقف المدرس، الذى يتعرض تماماً لأول مرة أمام طلابه.

إن اليوم الأول لهذا المدرس لن يكون خالياً من مشاعر عدم الطمأنينة ، وآيات الخجل والكبت ، وبخاصة إذا كان المدرس لا يمثل هذا مجرد شعور عابر لديه – فهو طبيعى فى اليوم الأول – ، ولكنه يكون كذلك فى حالة عدم اطمئنان حقيقى ، بل إنه يخاف فعلاً من عدم قدرته على أداء عمله أو على مواجهة صعوباته . ويتجلى فى أعماق المدرس وتصوره مفاجأة أن المواقف المحددة التى يواجهها داخل الفصل ، تبدو وكأنها لا تتصل بالنظريات التى تعلمها . والواقع أنه قد تكون ثمة علاقة بين النظرية التى درسها من قبل وبين الموقف الواقعى الذى يعيشه ويمارسه . بيد أنه نظراً لما يطغى على المدرس من مشاعر الخوف فقد تنتابه الرعشة ويتولاه الارتباك ، ويكون غير قادر على اتخاذ أى قرار .

وفى الواقع يكون الخوف وارداً وطبيعيًّا فى مثل هذه المواقف ، لكن مسئولية التعليم تقتضى مواجهته والتغلب عليه . ومواجهة الخوف وليس الهروب منه ، تتضمن تحليل عوامل وجوده ، وتوضيح العلاقة بين أسبابه وقدرتنا على التجاوب معه ، كما أن مواجهة الخوف لا تتطلب إخفاءه باعتبار أن اقتحام الخوف هو السبيل الوحيد للقضاء عليه .

وفى طوال حياتى لم أفقد شيئاً أبداً من جراء عرض مشاعرى وأحاسيسى الشخصية ، فى حدود معينة بطبيعة الحال . وفى موقف مثل هذا ، أعتقد أن أفضل سبيل للعمل

على مواجهة الفرد لأحاسيسه ، بدلاً من أن أعبر عن ثقة مزيفة باصطناع إطار غير صحيح يخشى أن يكشف ضعفه . إن أفضل شيء هو أن نبين للمتعلمين أننا بشر لنا قدرات محدودة ، وهذا يعنى أن نتحدث معهم عن حقنا فى أن نخاف فى مواقف ولحظات معينة . وهو الشيء الذى لا يمكن أن ننكره على مواقف المعلمين ، الذين لديهم الحق فى أن يخافوا مثلما يخاف المتعلمون ؛ فالمعلم ليس معصوماً فهو بشر كالمتعلم .

إن عدم القدرة على مواجهة الخوف سوف تقلل من مؤهلاته كمعلم ، ولكن معاناة الخوف لا تحسب كذلك . إن الخوف فى الأداء أثناء أول يوم مدرسى يمكن أن يتفهمه طلاب متمرسون ، مدركون أن ما يتعرض له المدرس الجديد إنما هو شيء طبيعى .

إن التحدث عن مخاوف عدم الطمأنينة إنما هو السبيل إلى جعل المعلمين يتجهون تدريجيًّا نحو التغلب عليها ، وهم فى الوقت ذاته يكتسبون ثقة المتعلمين . وبهذه الطريقة، وبدلاً من محاولة إخفاء مشاعر الخوف التى يغلفونها بمظاهر السلطة والتى يستشعرها المتعلمون ، ينبغى على المدرسين الجدد أن يعترفوا بها بكل تواضع . ثم إنه بالتحدث عن مشاعرهم فإنهم يقبلون أنفسهم كأشخاص ، بل ويختبرون رغبتهم فى أن يتعلموا مع طلابهم .

ومن الواضح أن هذا الموقف الضرورى من المعلمين حيال مخاوفهم وأمام طلابهم، يتطلب سعة الصدر وسلامة النفس التى تنجم عن فضيلة التواضع . وتتطلب أيضاً ثقة عميقة ليست ساذجة ، وإنما ثقة نافذة بالناس ، واختباراً وخبرة فى الحياة الديمقراطية ؛ فالمعلمون من الصفوة وأصحاب السلطة شأنهم شأن أولئك الذين يظنون أن الديمقراطية تكون فى حالة فساد عندما يجدون الطبقات الشعبية تتقاطر إلى الشارع فى احتجاجاتها، غير مدركين لأن التواضع فى مواجهة الخوف لا يعنى إلا صفة الجبن . والصحيح هو العكس من ذلك ، فإن مواجهة الخوف هو الخطوة الأولى نحو الشجاعة .

وهناك شيء أساسى آخر يتعلق بالخبرات الأولى للمدرسين الجدد تتمثل فى عنصر يجب على برامج تدريب المدرس أن توليه اهتماماً بالغاً – إذا لم تكن تفعل ذلك – ألا وهو إعداد المدرسين وإمدادهم بالقدرة على قراءة الفصل كما لو كان الفصل نصًّا ، يتطلب فك شفراته وفهمها .

إن المدرس الجديد يجب أن يكون ملتفتاً لكل شيء حتى للحركات البريئة التى يقوم بها الطلبة ، ولقلق الحركة الجسدية لديهم ، ولنظراتهم المفاجئة أو ردود فعلهم العدائية نحو هذا أو ذاك منهم .

وحينما يتولى المدرسون من ذوى الخبرة المحدودة مهمة التدريس فى مناطق بأطراف المدن ، عليهم أن يبدأوا التعرف على القيم واللغة ومضمون المعانى المتعلقة بطلابهم ، مما قد يُشعر مدرسوهم بالتناقض الشديد فيما بينهم ، ومما قد يؤدى إلى صدمة وتخوف لديهم . ولهذا فمن الضرورى أن يتفهم المدرسون أن تركيب الجمل اللغوى لدى الطلاب ، وسلوكهم ، وطرق مخاطبة مدرسيهم وزملائهم ، والقواعد التى تحكم عراكهم ولعبهم ، كلها جزء لا يتجزأ من كيانهم الثقافى ، والتى لا تفتقر إطلاقاً إلى الدلالة على المضمون الطبقى لهؤلاء الطلاب ، وعلى المدرسين أن يتقبلوا كل ذلك. ولن يدرك المتعلمون أنفسهم بشكل ديمقراطى ، إلا حين يحترم حقهم فى أن يقول الواحد منهم (أنا كائن) ثم عندما يصبح قادراً على أن يتعرف الأسباب النحوية التى تدعوه إلى أن يقول (أنا أكون) .

إن التدريب الجيد فى النظام الفكرى المطلوب " لقراءة " الفصل ، وكأنه نص يتطلب أن ينمى المدرسون هذه العادة كما لو كانت متعة وليس من قبيل مجرد الإجبار، وأن يدونوا ملاحظاتهم اليومية ويسجلوا ردود أفعال سلوك الطلبة وعباراتهم ومعانيها ، وإشاراتهم الرقيقة أو الرافضة ، ثم لماذا لا يقترحون على الطلاب – على سبيل اللعب – ملاحظة إشارات ولغة وفكاهة وسلوك المدرسين والزملاء كوسيلة للسيطرة على تعلم وظيفة اللغة ؟

ولعله من المفيد أن يعقد كل أسبوعين اجتماع للتقييم ، يمكن من خلاله استخلاص بعض النتائج بغية الوصول إلى تحليل دقيق لما يستحق التنفيذ . ولعله إذا استطاع أربعة مدرسين فى مدرسة واحدة أن ينفذوا مثل هذا المشروع مع طلابهم .. فيمكننا تخيل مدى النمو ، الذى يتحقق بين المدرسين والطلاب فى كل المجالات .

ويجب هنا أن ننبه إلى ملحوظة هامة مفادها أنه عندما نقرأ بعض النصوص ، نحتاج إلى أدوات مساعدة مثل القواميس ودوائر المعارف ، كما أن قراءة الفصول فى المدرسة كنصوص تتطلب أدوات يسهل استخدامها . ومن الضرورى مثلاً أن نلاحظ بعناية وأن نقارن بدقة وأن نستنتج بعمق ، وأن نتخيل جيداً وأن نحرر قدرتنا وأحاسيسنا من أن نصدق مقولات الآخرين دون أن نتغلغل فيما يعتقدونه نحو الآخرين. وعلى المرء أن يدرب قدرته على الملاحظة من خلال تسجيل ما يلاحظه .

لكن تسجيل الملاحظات لا ينبغى أن يكون مجرد وصف تفصيلى لما يحدث من وجهة نظر من يقوم بالتسجيل . لكنه يتطلب منه المخاطرة فى عمل ملحوظات نقدية وتقييمية دون إيلاء هذه الملاحظات صبغة اليقين . وعموماً يجب أن تخضع كل تلك الملاحظات إلى إطار التحليل المستمر من قبل المدرس الذى قام بتسجيلها ، كما يشارك فى ذلك طلابه فى كل خطوة من خطوات التسجيل ، وخطوات فحص البيانات بحيث تكون مجالاً يدور حوله حواراً مع الطلاب ، يؤدى إلى تصحيح الأخطاء كما يؤدى إلى التحقق من معطياتها .

وبهذه الطريقة .. فإن الفصل كنص يبنى تدريجيًّا فهماً صحيحاً لحالته بمشاركة المعلم ، مع إنتاج فهم جديد لنفسه مما يعنى أن إعادة هيكلة الفهم السابق قد تؤدى إلى إنتاج معرفة أفضل من صورتها السابقة . وهكذا علينا ألا نخاف من التعبير عن مشاعرنا وأحاسيسنا ورغباتنا ، بل يجب أن نتعامل معها بالاحترام نفسه الذى نكرس فيه أنفسنا للتعامل مع أى ممارسة معرفية من أجل أن تتكامل معها .. كذلك يجب أن نكون حذرين ومنفتحين معاً للعلاقات بين الحقائق والبيانات ومعطيات الواقع .

ولا يعتبر أياً من الأمور السابقة خارج محتوى قراءة المعلم للفصل ، والتى تعينه كدليل على أن ممارسته ليست محدودة ومقتصرة على التدريس الميكانيكى للمحتوى الدراسى . كما أنها أيضاً دليل على أن التدريس الضرورى للمحتوى ، يجب ألا يخلو من المعرفة النقدية للأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لبيئة المتعلم .

إن هذا التفهم النقدى لبيئة المتعلم هو الذى يفسر الوجود الدرامى لأعداد غفيرة من الطلاب الخائفين من هذا الوجود المأساوى ؛ حيث يقتربون فيه من الموت أكثر من الحياة ، والذى تعتبر فيه الحياة ليست أكثر من عذر أو مبرر لحدوث حالة الموت .

وذات يوم سأل أحد مذيعى التليفزيون طفلاً فى سن العاشرة يعمل بإحدى الورش فى سان باولو : هل تحلم عادة ؟ فأجاب الطفل بالنفى وهو مندهش من السؤال قائلاً إننى فقط أرى كوابيس . إن الوجود الحقيقى لأعداد لا حصر لها من الأطفال لهو وجود عفن محطم كالزجاج المهشم . ولهذا السبب فإنهم فى حاجة إلى معلمين ، يتسمون بالكفاءة المهنية مقترنة بالحب وبالود أكثر من مجرد معاملتهم بتدليل الأمهات.

وعلى المدرسين ألا يخافوا من إبراز مشاعر الحنان نحو طلابهم ، كما لا يجب أن يحصروا أنفسهم فى إطار الاحتياج الملح للوجود الراهن لدى هؤلاء الطلاب نظراً لحرمانهم من الوجود الحقيقى . ثم أن المدرسين الذين لا يتسمون بدرجة ود عالية يعتبرون التدريس مجرد حرفة تملؤها العقلانية ، ومن ثم يفتقدون معانى الحياة والمشاعر .

وعلى العكس من هذا ، فإننى أعتقد أن الحساسية بالألم المفروض على الطبقات الشعبية البرازيلية نتيجة الاحتقار الشرير الذى يلاقونه ، تدفعنا قدماً وتحركنا لكى نحارب بشكل سياسى من أجل إحداث التغيير فى العالم . ولا يمكن تحقيق أياً من ذلك بطريقة سهلة ، ولا أود أن أترك القراء ولديهم انطباع بأن الرغبة وحدها كافية لتغيير العالم ، فالرغبة أساسية ، لكنها غير كافية . وهى أيضاً ضرورية لتعرف كيف نريد وكيف نتعلم ما نريد ، والذى يعنى أن نتعلم كيف نحارب سياسياً بأساليب تكتيك مناسبة لأحلامنا الاستراتيجية . والشىء المستحيل بالنسبة لى هو ألا نفعل شيئاً ، أو

نفعل شيئاً قليلاً تجاه التناقضات المرعبة التى تصيبنا ، ولأننا نريد أن نصوغ عالمنا بشكل أفضل فلا داعى للتمييز بين الأفعال المتواضعة والمغالية التى تتطلبها وسائر التعبير.

وهذا يعنى أن أى شىء يمكن عمله بكفاءة وولاء ووضوح ومثابرة ، وأن أى شىء يقوى مصادر المعركة ضد قوى اللاحب والأنانية والشر ، يعتبر مسعى مهماً . وبهذا المعنى يصبح دور قائد النقابة فى مصنع ، وهو يشرح للعمال فى مطلع الفجر أسباب إضرابهم أمام بوابة المصنع أمرًا مستحقًا . كذلك هو مستحق لدور المدرس الذى يتحدث إلى تلاميذه فى مدرسة نائية عن حقهم فى الدفاع عن هويتهم الثقافية . إن كلاً من رئيس النقابة مع عمال مصنعه والمعلم مع طلاب مدرسته أمامهم مهمات كثيرة يقومون بها .

إنه من اللازم أن أقول إننى لا أنوى اختزال الممارسة التعليمية التقدمية إلى مجرد مجهود سياسى حزبى ، بل إننى أقصد أننا لا نستطيع أن نقتصر على تدريس المنهج الدراسى كما لو كان هو كل شىء فى العملية التعليمية . لكنه من حق المدرسين أن يطلقوا العنان لخيالهم وبشكل منظم ، ومنذ اليوم الأول فى الفصل يجب أن يوضحوا للطلاب أهمية الخيال فى الحياة ، فهو الذى يساعد على حب الاستطلاع والإبداع ، كما أنه ينمى روح المغامرة والتى دونها لا نستطيع أن نبدع .. إننى أتحدث عن الخيال الذى يتصف بالحرية الطبيعية فى الحركة : مسيرة وطيراناً ، وركضاً بحرية .

ومثل هذا الخيال ينبغى أن يتجسد فى كل حركة من حركات أجسامنا فى الرقص، والرسم ، والإيقاع ، وحتى فى الخطوات الأولى لتعلم الكتابة حين تكون مجرد شخبطة . كما يجب كذلك أن تكون جزءاً فى الحديث عند سرد الحكايات وإعادة سردها فى إطار ثقافة الطفل . إنه لضرورة ، ذلك الخيال الذى يأخذنا إلى أحلام ممكنة وغير ممكنة ، وعلينا أن نثير خيال المتعلمين لاستخدامه فى المواد التعليمية المدرسية . ونتساءل لماذا لا نطبق هذا فى المدرسة التى يرغبون فيها داخل الفصل ؟ ولماذا لا يتم ذلك فى مناقشة المشروعات المتخيلة ، مبينين لهم معوقات تنفيذها ؟ ولماذا خلال

المناقشة مع الطلاب غالباً ما نتجاهل العراقيل المحددة التى تعوق انطلاق خيالهم ، والصعوبات القائمة التى يتعذر التغلب عليها الآن ؟ ثم لماذا لا نؤكد حقهم فى التخيل وفى الحلم ، وفى الكفاح من أجل تحقيق هذا الحلم ؟ إن الخيال الممكن والضرورى الموجه نحو الحرية يجب أن يواجه القوى المضادة ، والتى تشعر بأن التمتع بالحرية ملك لها وحدها .

وأخيراً من المهم أن نوضح للطلاب أن الخيال لا ينبغى أن يكون تدريباً يمارسه أولئك الذين يبتعدون عن الواقع ، أو أولئك الذين يعيشون فى عالم الهواء. والأمر على النقيض من ذلك ، فإننا عندما نتخيل شيئاً ما فمن الضرورى أن نقوم بذلك شريطة شعورنا بأن هناك نقصاً فى معرفتنا بالواقع المحدد . والحاصل أنه عندما يتخيل الأطفال رغبتهم فى المدارس الحرة والسعيدة .. فإن ذلك يعزى إلى حرمان مدارسهم الحالية من الحرية والسعادة . وحتى اللحظة التى تركت فيها مدينة ريسيف كنت أقرأ عدة أشعار شعبية محلية ، يحاول فيها الشعراء اكتشاف مشاكل بيئتهم بصفة خاصة ، ولن أنسى أبداً أن أحد هذه الأشعار قد صور وجود رغيف قمح كبير جداً اجتمع على أكله جميع سكان منطقة ما . لم يكن هذا مثالاً للخيال الجامح بل كان شاهداً على العوز للسكان الجياع .. إن هذا الحلم الذى يتشكل بغزارة فى الشعر إنما هو تعبير عن الاحتياج الحقيقى .